اللغة العربية

بين

حافظ إبراهيم وعلى الجارم

تحليل وموازنة

بقلم

أ.د/ حسن عطية أحمد طاحون

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

اللغة العربية
بين
حافظ إبراهيم وعلى الجارم
تحليل وموازنة

بقلم
أ.د/ حسن عطية أحمد طاحون

المقدمة

لله حمدا يوافى نعمه ويكافئ مزيده، وأصلى وأسلم على من أوتى جوامع الكلم ... وبعد

فهذه سطور وجيزة عن اللغة العربية، من خلال قصيدتين لشاعرين عظيمين من شعراء العصر الحديث. أحدهما (حافظ إبراهيم ت:١٩٣٢م) والثانى (على الجارم ت: ١٩٤٩م)، وقد اتجهت للكتابة فى هذا الموضوع؛ لأبين أن تراثنا العربى ملئ بكنوز المعرفة، ولكنه فى حاجة إلى المزيد من المتابعة، والتحليل والموازنة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أردت أن أوقظ الحاسة اللغوية، والمروءة الثقافية التى تبثها فى الكون مفردات هذه اللغة المعطاءة، ولا يغيب عنا أن هذين الشاعرين تواجدا فى فترة زمنية خصبة، كثر فيها الرواد والعباقرة آنذاك، فحلق الجميع فى جو ثقافى مزدهر، وقدموا لنا شيئا من ثمار إبداعهم الذى سيظل يانعا بمشيئة الله .

وها نحن فى عصر التقدم (التكنولوجى) وازدهار العلوم والمعارف، ومن المفترض أن تكون اللغة فى طليعة هذا التقدم، ومع هذا ينصرف أناس كثيرون عن لغتنا الرائدة وآدابها ، وجمالها، وروعة إيحاءاتها بقصد أو بدون قصد، فأردت أن أنقل هاتين اللوحتين الفنيتين(*)، فأحللهما وأوازن بينهما، لعلهما تعيدان الوئام

(*) إشارة إلى القصيدتين .

مرة أخرى بين اللغة وقومها، أو تزيدان المحبة الكائنة عند الكثير من مريديها، وكيف لا تُحب ولا يُتقرب بها إلى الله، وهى لغة كتابه الخالد؟ وهى لغة أهل الجنة ؟؟؟

وبناء على ما سبق فقد ابتدأت البحث بالتعرف على القصيدتين، ثم جعلت الموضوع فى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أبرزت فيه الأفكار التى اشتملت عليها قصيدة (حافظ)، ولخصتها فى ستة عناصر موضوعية .

والمبحث الثانى: أوجزت فيه أيضا الأفكار التى وردت فى قصيدة (الجارم) . وجاء فى ستة عناصر .

والمبحث الثالث: خصصته للموازنة الفنية بين القصيدتين من ناحية: المطلع، والأسلوب ، والصورة الأدبية، والموسيقى والقافية، وفى نهاية البحث استخلصت بعض النقاط التى يمكن الخروج بها من هذا الموضوع .

والشاعران ــ عليهما رحمة الله ــ قدما من خلال القصيدتين زادا نافعا للمتخصصين وغيرهم، ويبقى نظمهما مصونا كالمسك الذى يُخرج رائحته العطرة فى كل حين. فإذا وجد توفيق فهو من الله عزوجل، وإذا وجد تقصير فمن نفسى، وحسبى أننى أحاول أن أجتهد، وأتقرب إلى الله تعالى بحب لغة كتابه العظيم .

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

نص القصيدتين

١ - النص الأول للشاعر"حافظ إبراهيم" المتوفى سنة ١٩٣٢م.

وعنوانه : [اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها] :

١- رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي
ونـاديـت قـومي فاحتسبتُ حيـاتي! (١)

٢- رمَوْني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي(٢)

٣- ولدتُ ولمَّا لم أجد لعرائسي
رجالا وأكفاء وادتُ بناتي ! (٣)

٤- وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات(٤)

٥- فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعاتِ ؟!

٦- أنا البحرُ في أحشائه الدرُ كامنٌ
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي؟

٧- فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني
ومنكم وإن عزَّ الدواء أساتي(٥)

٨- فلا تكلوني للزمان فإنني
أخاف عليكم أن تحين وفاتي! (٦)

٩- أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوامٌ بعز لغات ؟! (٧)

١٠- أتَوْا أهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات !!

---

(١) الحصاة : الرأى والعقل.
(٢) العداة : الأعداء.
(٣) العرائس : يراد بها الألفاظ المجلوة الحسنة.
(٤) الآى : جمع آية .
(٥) الأساة جمع الآسى وهو الطبيب.
(٦) تكلونى: تتركونى. تحين: تحل .
(٧) يقال: هو فى منعة، أى فى قوم يمنعونه ويحمونه.

١١- أيطـربكم مـن جانـب الغـرب ناعـب
ينـادى بـوادى فـى ربيـع حيـاتى؟! (١)
١٢- ولـو تزجـرون الطـير يومـا علمـتم
بمـا تحتـه مـن عثـرة وشـتات(٢)
١٣- سـقى الله فـى بطـن الجزيـرة أعظمـا
يعـز عليهـا أن تلـين قنـاتى ! (٣)
١٤- حفظـن ودادى فـى البِلَـى وحفظتـه
لهـن بقلـب دائـم الحسـرات
١٥- وفـاخرتَ أهـل الغـرب والشـرق مطـرق
حيـاء بتلـك الأعظـم النخـرات(٤)
١٦- أرى كـل يـوم بالجرائـد مزلقـا
مـن القـبر يـدنينى بغـير أنـاة (٥)
١٧- وأسمـع للكُتَّـاب فـى مصـر ضـجة
فـأعلم أن الصـائحين نعـاتى(٦)
١٨- أيهجرنـى قـومى - عفـا الله عـنهم -
إلى لغـة لم تتصـل بـرواة ؟ (٧)
١٩- سـرتْ لوثـة الإفـرنج فيهـا كمـا سـرى
لعـاب الأفـاعى فـى مسـيل فـرات(٨)
٢٠- فجـاءتْ كثـوب ضـم سـبعين رقعـة
مشـكَّلة الألـوان مختلفـات

---

(١) الناعب: المصوت بما هو مستكره.
(٢) العثرة: السقوط. والشتات: التفرق.
(٣) القناة: الرمح ، ولينها: كناية عن الضعف . ويريد "بالأعظم": من دُفن فى الجزيرة من العرب الأولين .
(٤) النخرات: البالية المتفتتة .
(٥) المزلق: مكان الانزلاق ، أى السقوط والزلل، والأناة: التأنى والإبطاء، وهو بذلك يصف لغة الجرائد بالضعف فى ذلك الوقت، فماذا يفعل إذا رأى جرائدنا اليوم؟!
(٦) النعاة: جمع ناع، وهو المخبر بالموت.
(٧) لم تتصل برواة:أى لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية.
(٨)اللوثة:بضم اللام:عدم الإبانة.ولعاب الأفاعى:سمها.الفرات:الماء العذب.

٢١- إلى معشـــر الكتـــاب والجمـــع حافـــل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى!!(١)
٢٢- فإمـــا حيـــاة تبعـــث الميـــتَ فـــى البلـــى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى!(٢)
٢٣- وإمـــا ممـــات لا قيامـــة بعـــده
ممات لعمرى لم يُقس بممات!!

٢ - النص الثانى للشاعر "على الجـارم"(*) المتـوفى سـنة ١٩٤٩م وعنوانه : "اللغة العربية":

١- مـــاذا طحـــا بـــك يـــا صَـــنَّاجة الأدب
هلا شدوتَ بأمداح ابنة العرب؟!(٣)
٢- أطـــار نومـــك أحـــداث وجمـــت لهـــا
فبت تنفخ بين الهم والوصَب ؟(٤)
٣- واليعربيـــةُ أنـــدَىٰ مـــا بعثـــت بـــه
شجوا من الحزن أو شدوا من الطرب(٥)

---

(١) الشَّكاة : الشكوى .
(٢) تبعث الميت: تحييه. والرموس: القبور . الواحد: رمس. والرفات: كل ما تكسر وبلى، يريد ما بقى من الجسد بعد الموت .
"ديوان حافظ إبراهيم من صـ٢٥٣ إلى صـ٢٥٥ شـرح/ أحمـد أمين وآخرين ط الثالثة.الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٨٧م".
(*) تبلغ القصيدة مائة بيت، ولكننى سأذكر الأبيـات التـى تتصـل بموضوع البحث فقط ؛ لأنه أطنب فى الحديث عن العادات العربية القديمة، وعن حكام مصر فى عهده؛ لأن بعضهم كان له دو كبيـر فى إنشاء مجمع اللغة العربية الذى ساهم بقدر فعـال فـى حفـظ وصيانة تلك اللغة الرائدة.
(٣) طحا بك : صرفك ، وذهب بك فى كل مذهب. الصَّنَّاجة: اللاعب بالصنج، وهو آلة لهارنين معين، وكان أعشى قيس يلقب بصـناجة العرب لحسن شعره، وصلاحيته للغناء. ابنة العرب: اللغة العربية
(٤) وجمتَ: سكت حزنا. تنفخ: ترسل نفسـا طـويلا . الهـم: الحـزن . الوصب: المرض.
(٥) اليعربية: اللغة العربية نسبة إلى يعرب بن قحطان الذى ينسب إليه عرب اليمن. أندى: أبعد صوتا. الشجو : الحزن.

٤ـ روح مـــن الله أحيـــتْ كـــل نازعـــة
مـن البيـان وآتـت كـل مُطَّلـبِ(١)
٥ـ أزهـــىٰ مـــن الأمـــل البسَّـــام موقعهـــا
وجرسُ ألفاظها أحلىٰ من الضَّـرَبِ(٢)
٦ـ جزيـــرة أجـــدبتْ فـــى كـــل ناحيـــة
وأخصبتْ فى نواحى الخُلْق والأدبِ!!
٧ـ جـــدبٌ بـــه تنبـــت الأحـــلام زاكيـــة
إن الحجارة قد تنشقُّ عن ذهبِ! (٣)
٨ـ تـــودَّ كـــلَّ ريـــاض الأرض لـــو مُنحـــت
أزهارها قُبْلَةً من خدِّها التَّرِبِ ! (٤)
٩ـ وترتجِـــى الغيـــدُ لـــو كانـــت لآلئهـــا
نظما مـن الشـعر أو نثـرا مـن الخطـبِ(٥)
١٠ـ يـــا جـــيرةَ الحـــرم المزهـــو ســـاكنه
سقى العهود الخوالى كل منسكبِ(٦)
١١ـ لى بيـــنكم صـــلة عـــزتْ أواصـــرها
لأنهـا صـلة القـرآن والنسـبِ! (٧)
١٢ـ وأحضـــر الشـــعراء اللســـن قـــد وقفـــوا
وللبيـان فعـال الصـارم الـذربِ(٨)
١٣ـ أبـــو بصـــير لـــه نَـــبْرٌ لـــو اتخـــذت
منه السهام لكانت أسهم النـوبِ(٩)
١٤ـ وأغمـــض العـــين حينـــا ثـــم أفتحهـــا
على جلال بنـور الحـق مؤتشـبِ(١٠)

---

(١) نازعة البيان:المراد العاطفة البيانية.آتت:أعطت.مطَّلب:مطلوب.
(٢) جرس: صوت . الضرب: العسل.
(٣) الأحلام: العقول. جمع حلم . زاكية: نامية متزايدة.
(٤) الترب: الكثير التراب.
(٥) الغِيد: الحسان. مفردها : غادة.
(٦) المزهو: المتكبر المفتخر. العهود الخوالى: العصور الماضية.
(٧) عزت: قويت. أواصرها: روابطها.
(٨) اللسن: الفصحاء. مفرده: لسن. الصارم: السيف. الذرب: الحاد .
(٩) أبوبصير: هو الأعشى القيسى. النوب: المصائب، مفردها: نائبة
(١٠) مؤتشب : ملتف .

١٥- نـــور مـــن الله هـــال القـــوم ســـاطعه
وليس يُحجب نور الله بالحجبِ!(١)

١٦- تكلمـــتْ ســـورُ القـــرآن مفصـــحة
فأسكتت صخبَ الأرماح والقضبِ(٢)

١٧- وقـــام خـــيرُ قـــريشٍ وابـــنُ ســـادتها
يدعو إلى الله فى عزمٍ وفى دأبِ(٣)

١٨- بمنطـــق هـــاشمى الوشـــى لـــو نســـجت
منه الأصائل لم تنصل ولم تغبِ(٤)

١٩- طابـــت بـــه أنفـــس الأيـــام وابتهجـــت
ومـر دهـرٌ، ودهـرٌ وهـى لم تطـبِ

٢٠- وأصـــبحت بنـــتُ عـــدنان بنفحتـــه
تيها تجـرر مـن أذيالهـا القشـبِ(٥)

٢١- فـــازت بـــركن شـــديد غـــير منصـــدع
من البيان وحبلٍ غـير مضـطربِ(٦)

٢٢- ولم تـــزل مـــن حمـــى الإســـلام فـــى كنـــف
سهل، ومن عزه فى منزل خصبِ(٧)

٢٣- حتـــى رمتهـــا الليـــالى فـــى فرائـــدها
وخر سـلطانها، ينهـار مـن صـببِ(٨)

٢٤- وعاثـــت العجمـــةُ الحمقـــاءُ ثـــائرة
على ابنة البيد فى جيش من الرهـبِ! (٩)

---

(١) هال : أدهش .
(٢) صخب : جلبة . القضب: السيوف الدقيقة .
(٣) خير قريش: كناية عن النبى ﷺ . دأب: جد .
(٤) الوشى: النقش. الأصائل: جمع أصيل وهـو مـا بـين العصـر والمغرب. لم تنصل: لم يتغير لونها .
(٥) بنت عدنان: كناية عن اللغة العربية . تيهـا : زهـوا وكبـرا . القشب: الجديدة جمع قشيب .
(٦) غير منصدع : غير منشق.
(٧) كنف: جانب . الخصب: الخصيب .
(٨) خر: سقط : صبب: منحدر.
(٩) عاثت: أفسدت. ابنة البيد: اللغة العربية. الرهب: الخوف.

٢٥- يقـــوده كـــل ولاغ أخـــى إحـــن
مضمخ بـدماء العـرب مختضب(١)
٢٦- لم يبـــق فيهـــا بنـــاء غـــير منـــتقض
من الفصيح وشملا غـير منقضب(٢)
٢٧- كـــأن عـــدنان لم تمـــلأ بدائعـــه
مسـامع الكـون مـن نـاء ومقـترب
٢٨- مضـــت بخـــير كنـــوز الأرض جانحـــة
وغابت اللغة الفصحى مع الغيـب(٣)
٢٩- يـــا عصـــبة الخـــير للفصـــحى وشـــيعتها
حياك صوب الحيا يا خيرة العصب(٤)
٣٠- هلـــم فالوقـــت أنفـــاس لـــه أمـــد
ولا أقول بأن الوقـت مـن ذهـب! (٥)
٣١- فإنمـــا المـــرء فـــى الـــدنيا إقامتـــه
إقامة الطيف والأزهـار والحبـب(٦)
٣٢- الـــدهر يســـرع والأيـــام معجلـــة
ونحن لم ندر غير الوخد والخبب(٧)
٣٣- والمحـــدثات تســـد الشـــمس كثرتهـــا
ولم تفـز بخيـال اسـم ، ولا لقـب
٣٤- والترجمـــات تشـــن الحـــرب لاقحـــة
على الفصيح فيا للويـل والحـرب!!(٨)
٣٥- نطـــير للفـــظ نســـتجديه مـــن بلـــد
نـاء وأمثالـه منـا علـى كثـب!!

---

(١) ولاغ:شارب شرب الكلب.إحن:أحقاد جمع إحنة. مضمخ: ملطخ.
(٢) منتقض: متهدم . منقضب: منقطع .
(٣) جانحة : مصيبة مبيدة .
(٤) عصبة: جماعة بين العشرة إلى الأربعين. صوب الحيـا: نـزول المطر.
(٥) هلم : اسم فعل أمر بمعنى: تعالوا. أمد: نهاية .
(٦) الطيف: الخيال الطائف فى المنام. الحبب: فقاقيع الماء والخمر.
(٧) الوخد: سعة الخطو. الخبب: السرعة.
(٨) تشن: تثير. لاقحة: شديدة. الويل: العذاب . الحرب: الهلاك.

٣٦ـ أنـــترك العربـــى الســـمح منطقـــه
إلى دخيل من الألفاظ مغـترب؟! (١)
٣٧ـ وفـــى المعـــاجم كنـــزٌ لا نفـــاد لـــه
لمـن يميـز بـين الـدر والسـخبِ (٢)
٣٨ـ كـــم لفظـــة جهـــدت ممـــا نكررهـــا
حتى لقد لهثت من شدة التعبِ!! (٣)

٣٩ـ ولفظـــة ســـجنت فـــى جـــوف مظلمـــة
لم تنظر الشمس منها عـين مرتقـبِ (٤)
٤٠ـ كأنمـــا قـــد تـــولى القارظـــان بهـــا
فلم يؤوبـا إلى الـدنيا ولم تـؤبِ (٥)
٤١ـ يـــا شـــيخة الضـــاد والـــذكرى مخلـــدة
هنـا يؤسـس مـا تبنـون للعَقِـبِ (٦)
٤٢ـ مـــن مبلـــغ العـــرب أن الضـــاد قـــد بلغـــت
بقرب صاحب مصر أرفع الرتـبِ؟ (٧)
٤٣ـ أعـــاد مجـــدا لهـــا مالـــت دعائمـــه
فيا لها قربة من أعظم القربِ!! (٨)

(١) السمح : السهل. مغترب: غريب.
(٢) المعاجم:كتب اللغة.السخب:جمع سخاب وهو العقد من الودع ونحوه!
(٣) لهث: أخرج لسانه تعبا .
(٤) مظلمة: حفرة عميقة مظلمة .
(٥) القارظان: رجلان من بنى عنزة خرجا فى طلـب القَـرُظ فلـم يرجعا. يئوب: يعود .
(٦) الضاد: اللغة العربية. العَقِب: من يأتون بعدكم .
(٧) صاحب مصر: الملك فؤاد الذى أنشئ المجمع اللغوى فى عهده.
(٨) دعائمه: عمده جمع دعامة. قربة: بر يتقرب به إلى الله تعالى .
ديوان: على الجارم من صـ٣٢٧ إلى صـ٣٣٥ ط . دار الشروق بيروت ١٩٨٦م .

المبحث الأول
الأفكار التى اشتملت عليها قصيدة حافظ

تتلخص الأفكار التى جاءت فى قصيدة (حافظ) فى ستة عناصر هى:

١ - مطلع تهكمى ساخر .
٢ - فضل أهل الجزيرة على اللغة .
٣ - سعة اللغة وصلاحيتها لكل جديد .
٤ - محن وابتلاءات تواجه اللغة .
٥ - عتاب لأهل اللغة .
٦ - حُلول عملية لصيانة اللغة .

العنصر الأول: مطلع تهكمى ساخر:

يتمثل هذا المطلع فى هذه الأبيات التى جاءت على لسان اللغة:

رجعتُ لنفسى فاتهمت حصاتى(١)
ونادیت قومی فاحتسبت حیاتی
رمَوْنی بعقم فی الشباب ولیتنی
عقمت، فلم أجزع لقول عداتی(٢)
ولدتُ ولمَّا لم أجد لعرائسی
رجالا وأكفاء وأدت بناتی !(٣)

فقد جعل للغة نَفْسًا، ويراجع كلاهما الآخر، وبدلا من أن تتهم قومها ــ وهم المتهمون على وجه الحقيقة ــ تتهم حصاتها، وكأنها تخاطب أهل الفكر والرأى، أهل الحل والعقد، تخاطب أولى الألباب،

---

(١) رجعت لنفسى : أى تأملت. والحصاة: الرأى والعقل. واحتسبت حياتى: عددتها عند الله فيما يدخر . (ديوان الشاعر صـ٢٥٣) .
(٢) العداة : الأعداء. يقول: اتهمونى بأنى لا ألد على حين أنى فى ريعان شبابى، وليتنى كنت كما قالوا فلا يحزننى قولهم. وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها .
(٣) يريد بالعرائس: الألفاظ الحسنة. ووأد البنت: دفنها حية. [ديوان حافظ صـ٢٥٣] .

وتناديهم وتعتز بهم عن طريق إضافة القوم إليها: (وناديت قومى)، وعندما رفضوا الإصغاء احتسبت حياتها.

وتقرعهم بأن الرماية بالعقم، هى دعوى بغير دليل، وحجة على جهل الرامى وبُعده؛ لأن الرماية لا تكون إلا عن بُعد ... ومثل هذا كمثل فاسق جاء بنبأ لم يتبينه، ولو أنهم اقتربوا من الهدف قبل الرمى، لعلموا أننى ولّادة ولست عقيمة، ومع ذلك لن أجزع ولن ألتفت لوشاية الأعداء. فقط أريد منكم عظمة الرجال، وكفاءة الأبطال الذين يغيرون على بناتى[1] فلا يوأدن وهن أحياء.

العنصر الثانى : فضل أهل الجزيرة على اللغة :

وتتمثل هذه الجزئية فى الأبيات الآتية:

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظمًا
يعز عليها أن تلين قناتى[2]
حفظن ودادى فى البِلَى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسراتِ
وفاخرتُ أهلَ الغرب والشرق مطرقٍ
حياءً بتلك الأعظم النخراتِ[3]

يدعو بالسقيا للعرب الأولين الذين أخلصوا للغة، ولم يقبلوا الضيم ولا الإهانة لها، وطوَّعُوها لما يريدون، من المعارف المشتملة، على الحِكَم .. والأشعار .. والأمثال .. والوصايا التى تأخذ بيد البشرية إلى السمو والرقى، والتقدم، وأكبر دليل على ذلك أننا فى العصر الحديث نرجع إلى العصور القديمة لنجنى هذه الثمار التى خلَّفها العربُ الأوائل.

---

(١) وهى مفردات اللغة التى يتكون منها البيان المؤثر الذى ينشر الإيجابية والفضيلة فى المجتمع .

(٢) القناة: الرمح. ولينها: كناية عن الضعف. ويريد "بالأعظم" من دفن فى الجزيرة من العرب الأولين .

(٣) النخرات: البالية المتفتتة.

وهناك وفاء متبادل بين اللغة والفصحاء الأولين يدل عليه هذا التعبير الراقى: [حفظن ودادى فى البِلَىٰ وحفظته لهن] ، وجاء بلفظ (ودادى)؛ ليبين أن الود الحقيقى لابد أن يكون متبادلا بين طرفين، وهذا ما يحدث بالفعل بين اللغة وأهل مودتها!

الجدير بالذكر أن (الود) غير (الحب)، فالحب من الأعمال القلبية الباطنة، والود من السلوكيات التى تبرهن عليه "كإعطاء الهدايا والمنح"(١)، فمن مال إلى اللغة فقط فهو يحبها، ومن أحبها ودافع عنها وصانها من اللحن فهو من أهل مودتها.

واللغة تفاخر أهل الغرب، بقوة الدفع الذاتى؛ لأنها صارت عالمية، فكل مكان يبلغه الإسلام تبلغه لغته، وكان هذا كله "بفضل القرآن الكريم، فهو الذى حفظ العربية من الضياع، ونشرها فى أقطار الأرض، وجعلها لغة حية خالدة"(٢).

العنصر الثالث: سعة اللغة وصلاحيتها لكل جديد:

وتتمثل هذه الفكرة فيما يلى من أبيات:

وسعت كتاب الله لفظا وغايةً
وما ضقتُ عن آيٍ به وعظات
أنا البحرُ فى أحشائهِ الدُّرُّ كامنٌ
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

تخاطب اللغة من يرمونها بالعقم والجمود ، بأنها شرفت وعظمت وخلدت بأن جعلت وعاء لمراد الله ــ عزوجل ــ من خلقه عن طريق كتابه العزيز ... والله يعلم أزلا أن هناك آلات ومخترعات

---

(١) النور الأسمى فى شرح أسماء اله الحسنى صـ٢٨٧ بتصرف. سليمان سامى محمود. ط دار الصابونى . القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(٢) العصر الإسلامى صـ٣١ د/ شوقى ضيف ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٩م.

ستظهر فى المستقبل، وكما علم "آدم" الأسماء من قبل[1]، سيعلّم أبناءَه ويلهمهم أسماء هذه الآلات والمخترعات[2] التى ما وجدت إلا لخدمتهم، وسعادتهم وقضاءِ حوائجهم، ومن ثَمَّ يأتون بالعبادة على الوجه الأكمل.

وأرى أن تشبيهها بـ(البحر)[3] يحدُّ من سعتها؛ لأنها تسير فى رحاب كتاب الله فحيثما حلَّ حلتْ معه، وهو سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وما زوى[4] للنبى ﷺ من الأرض، واللغة كذلك ، ومراد الله الذى تحمله اللغة يحتاج إلى بحار كثيرة، فلا يكفى البحر الذى أتى به شاعرنا؛ ولذا يقول مُنزل الكتاب المبين ــ سبحانه وتعالى ــ:﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[5].

وترتيب الأبيات على صورتها الماضية جاء بناء على وِجهةٍ لى حيث قدمت قوله:

[أنا البحر فى أحشائه الدر كامن...]

على قوله:

[فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة..؟]

ووجهتى فى ذلك أن مجئ التشبيه التمثيلى (أنا البحر..) كان لتقريب هذه السعة اللغوية بما ندركه وهو "البحر" ... وهذا البحر يحتاج إلى المهرة من الغواصين، ولو غُصتم فى أعماقها لحَصَلتمُ

---

(١) إشارة إلى قوله عزوجل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ من الآية ٣١ سورة البقرة.

(٢) مثل : "غسالة وثلاجة" على وزن فعالة. و"مبرد" على وزن مفعل... إلخ.

(٣) علما بأن الماء يمثل ٧١% من حجم الكرة الأرضية .

(٤) أى ضم وجمع للرسول الكريم من الأرض (مشارقها ومغاربها) [لسان العرب ... بإيجاز] .

(٥) الآية ١٠٩ سورة الكهف.

على ما تريدون من اشتقاقات وألفاظ تسعفكم فى الحاضر والمستقبل. وهذا هو سر التعبير بصيغة المبالغة فى قوله:

[فهل ساءلوا الغوَّاص عن صدفاتى؟]

العنصر الرابع: محن وابتلاءات تواجه اللغة:

وتتمثل هذه الفكرة فيما يلى من أبيات:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا(١)
من القبر يدنينى بغير أناة !
وأسمع للكُتَّابِ فى مصر ضجة
فأعلم أن الصانحين نعاتى!(٢)
سرت لُوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات(٣)
فجاءت كثوبٍ ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات(٤)

والتعبير بالمضارع (أرى) يدل على دقة التصوير الواقعى لحال اللغة، وهو يدل على الاستمرار والتجدد، فحالها هكذا فى كثير من المؤسسات التعليمية وغيرها، ويرمز بـ(الجرائد) إلى وسائل الإعلام المختلفة، المسموع منها والمرئى، والمكتوب، فإن اللحن فيها يسرى فى المجتمع كسريان النار فى الهشيم، ولا يريد بذلك اللغة فقط إنما يريد أيضا ما تحمله من معان هابطة، وأفكار مثبطة، وحكم وأشعار بغير الصواب ناطقة(٥).

---

(١) المزلق:مكان الانزلاق،أى السقوط والزلل.والأناة:التأنى والإبطاء.
(٢) النعاة: جمع ناع ، وهو المخبر بالموت .
(٣) اللَّوثة:بفتح اللام: الحمق والهيجان،واللُّوثة:بضم اللام مس الجنون، والمراد: عدم الإبانة. ولعاب الأفاعى:سمها. والفرات:الماء العذب.
(٤) ديوان حافظ ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .
(٥) وهذا لا يمنع أن هناك فئة ترتقى بالمجتمع عن طريق لغتها وأفكارها وشعرها الرصين، وأدبها الهادف الذى يبث الحق والخير والجمال والفضيلة فى الكون كله .

ومجئ كلمة(القبر)على لسان اللغة فيه من الانقباض ما فيه، وهو بذلك يصور حجم المحن التى تؤلمها..ومع ذلك يحترس بالفعل(يدنينى) فهى لم تقبر ولن تقبر،ولكنها تحذر من تزايد المحن والهجمات التى ترشقها من أعدائها وقومها غير النابهين الذين يضعون السم فى العسل بقصد أو بدون قصد، فكلا الفريقين يشعرها بالحزن والحسرة الدائمة.

العنصر الخامس: عتاب لأهل اللغة:

وتتمثل هذه الجزئية فى الأبيات الآتية:

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى
ومنكم وإن عز الدواء أساتى(١)
أيطربكم من جانب الغرب ناعب(٢)
ينادى بوأدى فى ربيع حياتى؟
ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات! (٣)
أيهجرنى قومى - عفا الله عنهم -
إلى لغة لم تتصل برواة!!؟ (٤)

فتعتب اللغة على قومها، وتناديهم مسترحمة متوجعة، وتؤكد أن الأطباء المهرة موجودون بين قومها، فلماذا يتركون داء اللحن حتى يستفحل؟ وهى بذلك تستنهض هممهم، وتنفض الغبار عن القدرة الكائنة فى أعماقهم ... وتلح فى ذلك، وتتساءل أتطربون لكل

---

(١) أساة جمع آسى : وهو الطبيب مثل رماة ورام. [مختار الصحاح صـ١٨. الإمام الرازى ط المكتبة العصرية.بيروت سنة١٩٩٦م].

(٢) الناعب : المصوت بما هو مستكره. وربيع الحياة :أيام الشباب والقوة.

(٣) زجر الطير : معناه إن طار جهة اليمين تفاءل به العربى قديما وإن طار جهة اليسار تشاءم به. والعثرة: السقوط. والشتات. التفرق. لو فعلتم ما فعله العرب قديما لعلمتم ما يجر عليكم دفنى من السقوط والانحلال.

(٤) لم تتصل برواة: لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التى تحفظها من التغيير كما هو الشأن فى اللغة العربية .

ناعب يريد وأدى، وأنتم أصحاب الأمجاد والتراث الملئ بكنوز المعرفة؟

وتستنكر اللغة هجران قومها لها، وهم يولون وجوههم شطر لغات[1] أخرى مليئة بالعثرات، والمغالطات، والتناقضات، فلم ترد عن طريق التواتر والسند كمجئ القرآن الكريم بلغته وقيمه التى تخاطب الناس كافة، فشتان بين ما هو موصول بالأهواء، وما هو موصول بالسماء.

العنصر السادس: حلول عملية لصيانة اللغة:

وتتمثل هذه الفكرة فى الأبيات الآتية:

إلى معشر الكُتَّاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى[2]
فلا تكلونى للزمان فإننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى![3]
أرى لرجال الغرب عزة ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات؟![4]
أتوْا أهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات
فإما ممات لا قيامة بعده
ممات لعمرى لم يُقس بممات
وإما حياة تبعث الميت فى البلَى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى![5]

---

(١) لا يوجد مانع فى اللغة والشرع من التعرف على اللغات الأخرى غير العربية، والاستفادة من الثقافات المختلفة بشرط عدم التخلى عن الأصل والهوية. بل إن الإسلام يدعو إلى التقاط الحكمة والمعرفة بشتى صورهما.

(٢) الشكاة: الشكوى.

(٣) تكلونى: تتركونى. وتحين: تحل.

(٤) يقال: هو فى منعة، أى فى قوم يحمونه ويمنعونه.

(٥) تبعث الميت: تحييه. والرموس: القبور المفرد: رمس. والرفات: كل ما تكسر وبلى يريد ما بقى من الجسد بعد الموت.

فتوجه اللغة نداء عاجلا إلى صنف من الناس، إلى صفوة الصفوة فى المجتمعات، إلى الكُتَّاب الذين يقودون مسيرة الأمة بفكرهم ولغتهم وعطائهم، وغيرتهم على الفضيلة والازدهار.

فالرجاء الأوفر فى هؤلاء، ولا مجال ــ مع وجود الرجاء ــ للمزيد من الشكوى والحسرة فقد حان الوقت للعمل الجاد، فيجب أن يحذر هؤلاء وغيرهم من ترك اللغة لأهل الزمان يعبثون بها حتى لا يأتى يوم نفتقدها فيه.

وإذا أراد أهل الشرق عزة[1] حقيقية ومنعة لا تنفد، فعليهم أن يستمسكوا باللغة وآدابها، فهى السبب فى علو شأنهم ، وعالميتهم منذ "عكاظ" ومرورا بنزول الكتاب العزيز، وورود الأحاديث المطهرة إلى أن تنتهى الحياة، ويقوم الناس لرب العالمين.

فاللغة ــ كما يقول الأستاذ العقاد ــ "بدأت تاريخها المعروف بخصائصها المميزة لها اليوم فى عصر سابق[2] للدعوة الإسلامية، يرده علماء المقارنة بين اللغات إلى القرن الرابع قبل الهجرة، ويرجع ــ فيما نعتقد ــ إلى عصر قبل ذلك؛لأن المقابلة بينها وبين أخواتها السامية يدل على تطور لا يتم فى بضعة أجيال، ولابد من أصل قديم يضارع أصول التطور فى أقدم اللغات..." [3].

ولما بلغ العرب قبل الإسلام مبلغا راقيا يشهد له العدو والصديق، نزل ما هو أرقى منهم ــ وهو القرآن ــ يتحداهم، وبذلك

---

(١) فهى الكائنة فى قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ من الآية ١٣٩ سورة النساء.

وعزة الإسلام وحضارته الإنسانية لم ولن نفهمها إلا عن طريق اللغة الوفية بأساليبها ومعطياتها .

(٢) وهذا ما جعلنى أشير إلى سوق "عكاظ" .

(٣) اللغة الشاعرة صـ٥ أ/ العقاد . ط مكتبة غريب بالقاهرة سنة ١٩٨٨م.

صار معجزة ومنهجا ... وتذكرهم اللغة بلسان حالها قائلة: إذا كان الغرب قد أتى بالمخترعات الحديثة التى تسمى معجزات ... فأنتم أسبق بمعجزة البيان التى توجه مسيرة الإنسان على هذه البسيطة.

فالغرب يأتون بمعجزات (النووى والسفن الفضائية) وغيرهما ... فيدمرون بالأول ... ويتجسسون بالثانى. ومعجزة البيان بالكلمات تنشد العمران، وتصون حرمة الإنسان حتى ولو كان على غير الدين المرتضى. وأعتقد أن هذا المعنى هو جوهر ما جاء فى قوله على لسان اللغة:

أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات!

ولذلك إما أن تكونوا بهذه الحياة البياتية، وإما ألا تكونوا لو تخليتم عما فيه عزتكم، وحمايتكم، وديمومة حضارتكم.

والجدير بالذكر أن ترتيب الأبيات فيه تدخل منى؛ لأن شاعرنا ختم القصيدة بقوله:

[فإما ممات لا قيامة بعده ...]

فقدمت هذا البيت، ووددت أن تختم بقوله :

وإما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى

لبعث الأمل وروح التفاؤل، فيحلقان بجناحيهما ويتعانقان مع الرجاء فى أول أبيات هذه الفكرة، ويظللون جميعا معشر الكتاب فى المحافل العلمية وغيرها.

ولا نغفل دلالة المضارع فى: (تبعث .. وتنبت) فهما يدلان على الاستمرار والتجدد، وكم من شعر كان ميتا فأحياه البارودى وغيره ــ مثلا ــ وكم من حكمة كانت مبعثرة فى بحار اللغة، فجمعها الغواصون، وسقوها برواء البيان الممتع.

المبحث الثانى
الأفكار التى اشتملت عليها قصيدة على الجارم

وتتلخص هذه الأفكار فى ستة عناصر هى:

١ - مطلع استنكارى ممزوج بالتفاؤل ومدْح اللغة.

٢ - الجزيرة العربية وفضلها على اللغة ، وما فيها من أنشطة لغوية فى "عكاظ" وغيره.

٣ - فضل القرآن الكريم وأحاديث الرسول ـ ﷺ ـ على اللغة.

٤ - المِحن التى تواجه اللغة.

٥ - نداء إلى محبى اللغة .

٦ - خطوات عملية لصيانة اللغة.

العنصر الأول : مطلع استنكارى ممزوج بالتفاؤل ومدْح اللغة:

يقول فى هذا المطلع:

مـــاذا طحـــا بـــك يـــا صَـــنَّاجة الأدب
هلا شدوتَ بأمداح ابنـة العـرب؟(١)
أطـــار نومـــك أحـــداث وجَمْـــتَ لهـــا
فبـت تـنفخ بـين الهـم والوصـب(٢)
واليعربيـــة أنـــدى مـــا بعثـــت بـــه
شجوا من الحزن أو شـدوا مـن الطـرب(٣)

---

(١) طحَا بك : صرفك، الصنَّاجة: اللاعب بالصنج، وهو لقب أطلق على الأعشى (ميمون بن قيس)؛ لصلاحية شعره للغناء ، وتوفى سنة ٧هـ [شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها صـ٥١ شرح / أحمد أمين الشنقيطى . ط.بيروت د.ت] ابنة العرب: اللغة العربية. والأبيات فى (ديوان على الجارم صـ٣٢٧ ط . دار الشروق سنة ١٩٨٦م).

(٢) وجَمْتَ : سكت حزنا. تنفخ : ترسل نفسا طويلا. الهم : الحزن. الوصب: المرض.

(٣) اليعربية: اللغة العربية نسبة إلى يعرب بن قحطان الذى ينتسب إليه عرب اليمن، وهم العرب العاربة. أندى: أبعد صوتا. الشجو: الحزن.

روح مـــن الله أحيـــت كـــل نازعـــة
مـن البيـان وآتـت كـل مُطَّـبِ(١)
أزهـــى مـــن الأمـــل البسَّـــام موقعهـــا
وجرس ألفاظها أحلى من الضَّـرَبِ(٢)

فيأتى فى مطلع القصيدة بهذا الاستفهام الذى يدل على الاستغراب والدهشة، ويوجهه إلى كل شاعر قادر على التأثير فى الآخرين، ولكنه فى شخص (الأعشى) ؛ لما له من مكانة بيانية وصوتية، ويحض الجميع على الشدو فما أروعه! وما أحوج المجتمع إليه!

ولكن الذى صرفك عن النظم والتعايش مع آدابه هو تلك الأحداث المحزنة، التى تصيب الإنسان بالهم والإحباط، والتراجع، هى أحزان الأمية، واللحن، والهبوط الثقافى، علما بأن (اليعربية) هى القادرة على بعث القيم، والهمم، ونشر الفضيلة، هى التى تحمل فى طياتها نورَ الحكمة، وصحوة الضمير، وتعطى كل إنسان سُؤْلَه؛ لأنه قدَّرها فقدَّرَتْه.

وهذه (اللغة) أبقى وأكثر سرورا من الأمل البسام، وبحسن نظمها، وروعة بيانها ينال المرء ما يريد من حاجات وأمنيات، فضلا على ما يحققه من مطالب أساسية، وتعاملات إنسانية بينه وبين المحيطين به، جاء فى بعض البرامج المسموعة أن أحد الأمراء كان فى مجلسه، ودخل عليه صبىٌّ فقال له الأمير: ما جَمْعُ "مسواك" فقال الصبى: ضد محاسنك يا أمير المؤمنين! فهش لهذا الأدب وأعطى للصبى جائزة كبرى!

---

(١) نازعة من البيان: من قولهم عنده نزعة إلى كذا أى ميل إليه. والمراد عاطفة بيانية. آتت: أعطت. مطلب: مطلوب.وأصله متطلب: أدغمت التاء فى الطاء.

(٢) جرس ألفاظها: صوتها. الضَّرب: العسل.

وقد يرمز شاعرنا بـ(صنَّاجة العرب) إلى القديم المتجدد من الأدب والفكر، فأريجهما باق على مر العصور مع ما يضاف إليهما من عطاء جديد، فلابد من التواصل بيننا وبين المبدعين القدامىٰ لأن انقطاع "الصلة بيننا وبين ماضينا فى اللغة والأدب أشبه شىء بتجريد الإنسان من الذاكرة وتركه فى أيدى المسخرين له أداة طيعة منقادة لكل ما تقاد إليه، بل الأمر أخطر من ذلك وأوخم عقبى .." (١).

ولفظ (الأمل) فى البيت الخامس، يوحى بالتفاؤل، وأن بقاء اللغة بآدابها وروعة بيانها أخلد من الإنسان، وقد جاء فى حديث ابن مسعود الذى رواه البخارى(٢) فيما معناه، أن النبى ﷺ خط خطوطا، للأجل،والأمل،والأعراض التى تواجه الإنسان فى حياته الدنيا، وجعل الأمل أطول من الأجل. وكذلك الأمل الذى يُرجى تحقيقه للغة العربية ومشتقاتها منوط ببقاء القرآن الكريم إلى يوم القيامة إن شاء الله.

العنصر الثانى: الجزيرة العربية وما فيها من أنشطة لغوية:

يقول حول هذه الفكرة:

جزيرة أجدبتْ فى كل ناحية ... وأخصبت فى نواحى الخُلْقِ والأدبِ

جُدْبٌ به تنبت الأحلام زاكية ... إن الحجارة قد تنشق عن ذهب(٣)

تود كلُّ رياض الأرض لو منحت ... أزهارها قُبْلَةً من خدها التَّرِبِ(٤)

وترتجى الغيدُ لو كانت لآلئها ... نظما من الشعر أو نثرا من الخطب(٥)

---

(١) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب صـ١٢٨ أ/ عباس العقاد . ط السادسة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٨م.

(٢) رياض الصالحين للإمام النووى صـ٢٢٠ ، ط الحادية عشرة ـ دار عالم الكتب . الرياض سنة ١٩٨٩م.

(٣) الأحلام: العقول. زاكية : نامية متزايدة.

(٤) الترب: الكثير التراب.

(٥) الغِيد: جمع غادة وهى الفتاة الحسناء.

إلى أن يقول:

وأحضر الشعراء اللسن قد وقفوا
وللبيان فعال الصارم الذرب(١)
أبو بصير له نبرٌ لو اتخذت
منه السهام لكانت أسهم النوَب(٢)
إذا رماها كما يختار قافية
دارت مع الفلك الدوار فى قطبِ(٣)

فالجزيرة العربية التى نبتت فيها اللغة كانت قفرا فى كل مناحيها، والخصوبة الفريدة التى وُجدتْ بها تمثلت فى رياض الخُلق والأدب، وهذه الرياض لا تُبنى إلا على اللغة بمفرداتها، وأساليبها وبلاغتها وجمال نظمها، وتُسقى برواء القيم الروحانية، وهذا هو الخصب الحقيقى ... وإذا كان الجدب موجودا فى الصحراء، فإن خصوبة العقل قادرة على تحويل الصحراء إلى مروج خضراء بالفكر والعلم والأدب والخلق ... ولا يمكن أن يحدث العكس إلا نادرا.

والجدب الموجود فى الصحراء لا يمنع العقول من أحلام اليقظة التى غالبا ما تتحول إلى واقع، بل إن الحجارة نفسها قد تحمل بين ذراتها حبات الذهب، وتحت طبقاتها المعادن ، والنفط. وماء "زمزم" ما جاء إلا من بين الحجارة ﴿ ...وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ...﴾(٤).

وهذه الخصوبة الفكرية فى الجزيرة جعلت الرياض اليانعة فى غيرها من الأرض تتمنى أن تنال منها قُبلة أو شيئا مما يُسَرُّ به الإنسان، وجعلت الغيد الحسناوات تترجى أن تكون لآلئها منظومة مما حَسُن من الشعر والنثر بدلا من الجواهر النفيسة؛ لأن لآلئ

(١) اللسن: الفصحاء. مفرده: لسن. الصارم: السيف. الذرب: الجاد.
(٢) أبوبصير :أعشى قيس وكان أعمى. النوب: المصائب جمع نائبة.
(٣) القافية آخر كلمة فى البيت ويريد القصيدة. قطب: مدار.
(٤) من الآية ٧٤ سورة البقرة.

الشعر والنثر أبقى، وأخلد، وأكثر نفعا، والجواهر الثمينة قد تلبسها الجاهلات، وقد تورث العداوات، وقد تجعل الإنسان أكثر انشغالا بوحل المادة، أما الأدب الجاد الراقى فإنه يرتقى دائما بالبشرية، ويحاول تخليصها من المثبطات المادية.

والخصوبة الأدبية فى الجزيرة أيضا هى التى جذبته لحضور مجالس الشعراء والأدباء، ويضرب مثالا بالشاعر الجاهلى "ميمون ابن قيس"الذى اشتهر بالأعشى،وبأنه"صناجة العرب"،وكنى "بأبى‌بصير"؛ لأنه أنجب ولدا عرف بذلك الاسم، وفى الديوان ذكر له، يوصيه أو يوجهه، ويعلمه السلوك الأمثل، والمنهاج الذى يرضاه بمثل قوله:

أ - سأوصى "بصيرا" إن دنوت من البلى
وكل امرئ يوما سيصبح فانيا

ب - سأوصى "بصيرا" إن دنوت من البلى
وصاة امرئ قاسى الأمور وجربا
بأن لا تبغ الود من متباعد
ولا تنأ عن ذى بغضة إن تقربا(١)

العنصر الثالث: فضل القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ على اللغة:

وحول هذه الفكرة يقول:

تكلمت سور القرآن مفصحة
فأسكتت صخب الأرماح والقضبا(٢)
وقام خير قريش وابن سادتها
يدعو إلى الله فى عزم وفى دأب(٣)
بمنطق هاشمى الوشى لو نسجت
منه الأصائل لم تنصل ولم تغب(٤)

---

(١) عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى صـ٤، ٥ عباس بيومى عجلان ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١م، والأبيات بديوان الأعشى صـ١٤٩ شرح د/محمد حسن ط. بيروت.

(٢) الصخب : الجلبة. القضب: السيوف الدقيقة.

(٣) خير قريش: كناية عن النبى ﷺ.

(٤) الوشى: النقش . الأصائل: جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. تنصل: يتغير لونها.

طابتْ بـه أنفسُ الأيام وابتهجتْ
ومر دهرٌ ودهرٌ وهى لم تطب
وأصبحت بنتُ عدنان بنفحته
تيها تجرر من أذيالها القشب(١)
فازت بركن شديد غير منصدع
من البيان وحبل غير مضطرب(٢)
ولم تزل من حمى الإسلام فى كنف
سهل ومن عزه فى منزل خصب(٣)

فقد أثبت لسور القرآن تكلمًا، وإسكاتا، ووسيلتها إلى هذين الهدفين هو اللغة بإيحاءاتها ودلالتها التى تحمل مراد الله إلى خلقه، فقد جاء فى الأثر: "من أحب أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ومن أراد أن يكلم الله فليدخل فى الصلاة.."، ويبين الشاعر بقوله:

[فأسكتت صخب الأرماح والقضب]

أن عهد القرآن يقضى على عهد الحروب والصراعات الجاهلية التى سبقته، ويُصطفى لحمل هذا القرآن نبىٌّ من أطهر الناس، ولم تؤثر عنه زلة، وإنما عرف بالحلم والمسالمة والرأفة والرحمة، والفصاحة التى لو نسجت منها الأصائل لم تتغير ولأصبحت ساطعة على مدى الدهر؛ لأنه ـ ﷺ ـ أوتىَ جوامع الكلم .

وقد عظم تأثير النبى الكريم فى كل شىء ببيانه الواضح، وسعدت به الأيام والليالى، ومرت قرون عديدة ولم تشبع الأجيال من هذا الرَّواء المحمدى، الذى أكسب اللغة فخرا، وتيها،وسهولة، "وأصبح من الممكن أن يتفاهم العرب وغيرُهم بلغة واحدة فصيحة، ولهجة واحدة عذبة، لا يستعصى على أحد فهمها"(٤).

---

(١) بنت عدنان: كناية عن اللغة العربية. بها: زهوا وكبرا. القشب: الجديدة. جمع قشيب .
(٢) منصدع: منشق.
(٣) الكنف: الجانب. الخصب: الخصيب. [ديوان الجارم صـ٣٣١].
(٤) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية صـ٤٢ أحمد حسن الباقورى ط. الرابعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٧م.

يقول د/ شوقى ضيف عن فضل الحديث النبوى على اللغة والأدب: "إن الحديث النبوى عاون القرآن فى انتشار [اللغة] العربية، وفى حفظها وبقائها...وبالتالى فهى(*) كنز ثمين،وقد استمد المتأدبون من هذا الكنز فى رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها ـ على مر العصور ـ رونقا ، وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم"(١) .

العنصر الرابع: المحن التى تواجه اللغة:

يقول حول هذه الفكرة:

وعاثت العجمة الحمقاء ثائرة
على ابنة البيد فى جيش من الرهب(٢)
يقوده كل ولاغ أخى إحن
مضمخ بدماء العرب مختضب(٣)
لم يبق فيها بناء غير منتقض
من الفصيح وشملا غير منقضب(٤)
كأن عدنان لم تملأ بدانعه
مسامع الكون من ناء ومقترب
مضت بغير كنوز الأرض جانحة
وغابت اللغة الفصحى مع الغيب(٥)

فقد وصف العجمة بالحماقة؛ لأنها تسير على غير هدى، وتنبت فى قلوب الحمقى الثائرين على الثوابت، وهذه الحماقة تدل على خبث المخبر، حيث ملئت قلوبهم بالإحن، وخلت من الحمية والمروءة، فهؤلاء المتعصبون للغات الأخرى فقط دخلاء على العرب، ومثلهم كمثل من كثر ولوغه فى الماء الراكد!

(*) أى الأحاديث النبوية .
(١) العصر الإسلامى صـ٤٠ باختصار .
(٢) عاثت: أفسدت. ابنة البيد: اللغة العربية. الرهب: الخوف .
(٣) ولاغ:شارب شرب الكلب.إحن: أحقاد جمع إحنة. مضمخ: ملطخ .
(٤) منتقض: متهدم. منقضب: منقطع .
(٥) جانحة: مصيبة مبيدة. الغيب: ما غاب جمع غائب. [ديوان على الجارم ٣٣١ ـ ٣٣٢] .

وقد أطلق على اللغة أنها [خير كنوز الأرض] ، وهى كذلك، بل إنها كنز كبير يتسع لكل ما فى السماوات، وما فى الأرض، وما بينهما إلى قيام الساعة، ولكن الشاعر كان متشائما فى هذا البيت عندما قال:

[وغابت اللغة الفصحى مع الغَيَب]

لأننا عندما نقرر أن اللغة كلها غابت مع الغائبين، يعلم أن القرآن كذلك؛ فهو مع اللغة أينما وجدت والعكس صحيح تماما، والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للقرآن، ففى أيامنا هذه تنتشر جمعيات تحفيظ القرآن فى القُرىٰ، وفى الفضائيات التلفزيونية ، وفى شرائط الكاسيت، والأعجب من ذلك كله أننا نرى أناسا من غير الناطقين باللغة العربية يحفظون القرآن بأحكامه ومن خلال لغته التى نزل بها !! ، والأوْلَىٰ بالشاعر أن يقول: إن هذه الجائحة[1] قد أتت على الكثير من مفردات اللغة أو معظمها؛ لأن التعميم فى الأحكام يجور على الحقائق.

وهناك محن أخرى يجملها الشاعر فى قوله:

والترجمات تشن الحرب لاقحة
على الفصيح فيا للويل والحَرَبِ[2]
نطير للفظ نستجدبه من بلد
ناء وأمثاله مِنَّا على كثبِ
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا
لعينه بارق من عارض كذبِ[3]
أزرى ببنت قريش ثم حاربها
من لا يفرق بين النبع والغربِ[4]

---

(١) المتمثلة فى الدعوة إلى اللهجة العامية واللغات الأخرى فقط .
(٢) تشن: تثير. لاقحة: شديدة . الويل: العذاب. الحرب: الهلاك .
(٣) كمهرق : كمن يصب الماء. عارض: سحاب معترض فى الأفق.
(٤) أزرى: أهان وعاب. النبع: شجر صلب ينبت على رؤوس الجبال. الغرب: نبات رخو ينمو على الأنهار.

وراح فـــى حملـــة رعنـــاء طائشـــة
يصول بالخائبين: الجهل والشغب(١)

ولا شك فى أن الترجمات الأمينة تضيف إلى الثقافة واللغة زادا كثيرا، ولكن المرفوض هو الترجمة باللهجـة العاميـة، أو بالألفـاظ المبتذلة، ولا يوجد مبرر لاستيراد ألفاظ لم تنبت فى البيئة العربيـة، بل إن هذه البيئة تصدِّرُ القرآن بلغته وآدابها إلى العالمين.

العنصر الخامس: نداء موجه إلى محبى اللغة:

وحول هذه الجزئية يقول:

يـــا عصـــبة الخـــير للفصـــحى وشـــيعتها
حياك صوب الحيا يا خيرة العصب(٢)
هلـــم فالوقـــتُ أنفـــاسٌ لهـــا أمـــدٌ
ولا أقـول بـأن الوقـت مـن ذهـب(٣)
فإنمـــا المـــرء فـــى الـــدنيا إقامتـــه
إقامة الطيـف والأزهـار والحبَـبِ(٤)
الـــدهر يُســـرع والأيـــام معجلـــة
ونحن لم ندر غير الوخد والخبب(٥)

فالنداء فى أول الأبيات عاجل ويدل على الأهمية، وهو لا ينادى كل الناس، ولكنه يتوجه للغيورين الـذين يضـمرون الخيـر للغـة، ويسلكون المسلك الملائم لبواطنهم، هؤلاء جديرون بالـدعاء لهـم، ويستمر فى استنهاضهم، ويحثهم على المسارعة فى الإنجاز الـذى يبرهن على خيرية اللغة واستمراريتها، فالوقت يمضـى ولا ينتظـر

(١) رعناء: حمقاء. طائشة: مخطئة. يصول: يحارب.
(٢)العصبة:الجماعة بين العشرة والأربعين.صوب الحيا:نزول المطر.
(٣) هلم: تعالوا. اسم فعل أمر. الأمد: النهاية.
(٤) الطيف: الخيال الطائف فى المنام. الحبب: فقاقيع الماء والخمر.
(٥) الوخد: سعة الخطو. الخبب : السرعة. (ديوان الشاعر ٣٣٢).

أحدا، والوقت ليس من ذهب كما يدور على الألسنة، بل هو الحياة، وهو رأس مال البشرية، فالذهب يأتى ويذهب، ويتعرض لانخفاض قيمته تارة وارتفاعها تارة أخرى . أما الوقت فإذا ذهب فلن يعود، ودائما قيمته محفوظة، فهو أنفس شيء تملكه الإنسانية .

والشاعر لم يتركْنا بلا برهان أدبى من الواقع يدلل به على سرعة انقضاء هذا الوقت، وسرعة رحيل الإنسان من الدنيا، فيقول: إن إقامة المرء فى الدنيا كإقامة الخيال الذى يطوف ليلا ويتسرب،وكإقامة الأزهار التى تذبل سريعا،والحبب أو فقاقيع الماء التى يخرج الهواء منها،وتصير إلى لا شيء، كما تخرج الروح من الجسد، ويصبح أثرا بعد عين.

وهذه الصورة المستمدة من الطبيعة لها من الإيحاءات مالها،وهى من أبلغ التعبيرات الحاثة على الإيجابية والنهوض،ويؤكد المعنى السابق بأن الدهر دائما مسرع، وأن الأيام تتعجل النهاية، ونحن أيضا نكثر الخطو، ونسرع فيه،ولكنه بعيد عن ميدان اللغة وآدابها وحضارتها الثقافية والفكرية.

العنصر السادس: خطوات عملية لصيانة اللغة :

ويقول حول هذه الفكرة:

أنترك العربى السمح منطقه
إلى دخيل من الألفاظ مغترب؟ (١)
وفى المعاجم كنزٌ لا نفاد له
لمن يميز بين الدُّرِّ والسخَبِ (٢)

(١) السمح: السهل. مغترب: غريب .
(٢) المعاجم : كتب اللغة . السخب : جمع سخاب وهو العقد من الودع ونحوه.

كـــم لفظـــة جهـــدتْ ممـــا نكررهـــا
حتى لقد لهثتْ من شدة التعبِ(١)
ولفظـــة ســـجنت فـــى جـــوف مظلمـــة
لم تنظر الشمس منها عين مرتقبِ(٢)
كأنمـــا قـــد تـــولى القارظـــان بهـــا
فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تـؤبِ(٣)
يـــا شـــيخة الضـــاد والـــذكرى مخلـــدة
هنـا يؤسـس مـا تبنـون للعقـبِ(٤)
هنـــا تخطـــون مجـــدا مـــا جـــرى قلـــم
بمثله فى مدى الأدهار والحقبِ(٥)

فأُولَىٰ هذه الخطوات العملية: التمسك بالألفاظ العربيـة وعـدم ترديد الألفاظ الدخيلة إلا لضرورة، ومفرداتنا العربية نألفها ويسـهل جريانها على الألسنة، وهى قادرة على التعبير عن أى شىء نريده.

وثانى هذه الخطوات: حتمية الرجوع إلى المعاجم ففيهـا آلاف الألفاظ التى لم تر النور، وهى مخبأة فى هذه الكنوز، وتحتاج ــ فقط ــ إلى الغواص الذى أوصى به (حافظ) فى قصيدته السابقة:

أنـــا البحـــر فـــى أحشـــائه الـــدر كـــامن
فهل ساءلوا الغَوَّاصَ عـن صـدفاتى؟

وثالث هذه الخطوات: ضرورة التوسع فى اسـتخدام ظـواهر: (الترادف) و(النحت) و(الاشتقاق)، حتى يتسـنَّىٰ للمـتكلم أن يـأتى بالجديد من الألفاظ والمعانى، بدلا من التركيز على كلمات معينة قـد

(١) لهث: أخرج لسانه تعبا.
(٢) مظلمة: حفرة عميقة مظلمة.
(٣) القارظان: رجلان من بنى عنزة خرجا فى طلـب القـرظ فلـم يرجعا. يؤوب: يرجع أو يعود.
(٤) الضاد: اللغة العربية. العقب: من يأتون بعدكم.
(٥) الحقب: العصور. (ديوان الشاعر / ٣٣٣).

أعياها الاستخدام المفرط لها،مما أدى إلى ابتذالها وهى فصيحة فى حدِّ ذاتها.

ورابع هذه الخطوات: أهمية اعتناء أولى الأمر باللغة العربية وبكل ما يتعلق بها؛ ولذا فقد أشاد بالملك (فؤاد) الذى أنشىء[1] المجمعُ اللغويُّ بالقاهرة فى عهده :

لولا (فؤاد) أبوالفاروق ما وجدت
إلى الحياة ابنة الأعراب من سبب[2]
أعزّ منها حمى ريعت كرائمه
وكان ممنوعه نهبا لمنتهبِ[3]
وردَّ بالمجمع المعمور غربتها
وحاطها بكريم العطف والحدَبِ[4]

(١) أنشىء مجمع اللغة العربية فى ١٤شعبان ١٣٥١هـ الموافق ١٩٣٢/١٢/٣م.
(٢) ابنة الأعراب: اللغة العربية .
(٣) الحِمَىٰ : ما يجب أن يُحْمَىٰ. ريعت: أفزعت .
(٤) الحدب: العطف [ديوان الشاعر صـ٣٣٢] .

المبحث الثالث
الموازنة بين القصيدتين فَنِّيًّا

أولا: فكرة المطلع فى القصيدتين :

وتدل على اتفاقهما فى أشياء واختلافهما فى أشياء، أما ما اتفقا عليه فهو: عدم الرضا بالوضع الحالى للغة، وإشعار الناطقين بها بالتقصير، (فحافظ) الذى نشرت قصيدته سنة ١٩٠٣م يجعل اللغة تتهم نفسها، وهى لا يتأتى منها ذلك فالمتهم قومُها، الذين سبوها ببهتان العقم، ولو صدر هذا السب من الأعداء فلن تحزن، ولكنه من المكلفين بحمل أمانتها:

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى
عقمت ، فلم أجزع لقول عداتى

والجارم الذى ألقى قصيدته سنة ١٩٣٤م يتوجه بالاستفهام الإنكارى المفعم بالتقرير والتعجب، إلى قومها الذين رمز إليهم بشخصية (أعشى قيس) أو (صنَّاجة) الأدب؛ ليذكرهم بإيجابية هذا الشدو الذى يريح النفوس، ويحيى القلوب، ويلقح الأفكار، وكأنه يطلب من الناطقين باللغة العربية أن يقدموا تقريرا عن سبب انصرافهم وفى الوقت نفسه يستنكر هذا منهم، ويتعجب لصنيعهم فى حين أنها:

روح من الله أحيت كل نازعة
من البيان وآتت كل مطَّلَب(١)
أزهى من الأمل البسام موقعها
وجرس ألفاظها أحلى من الضَّرَب

ومضى الشاعر فى سرد الكثير من محاسنها ليرغب المخاطب فى التمسك بها، والعودة إليها، ويلزم المقصر بالاعتراف بأنه لا

(١) أصل الكلمة: متطلب: أدغمت التاء فى الطاء لقرب مخرجيهما وللمحافظة على الوزن .

مبرر للبعد عنها والانصراف إلى غيرها، وكيف يحدث هذا وهى أحلى من العسل؟ وفيها شفاء لأمراض عقدية، وثقافية، واجتماعية كثيرة.

واختلف الشاعران فى طريقة العرض (فحافظ) يجعل اللغة ناطقة فتعبر عما يؤلمها، ويفجعها، ولكنها لا تفقد الأمل:

إلى معشر الكُتَّاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى

ويجعل عنوانها فى ديوانه: "اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها"[1]، ويبدؤها بالأسلوب الخبرى الذى يغلب عليه فى القصيدة كلها، ولكنه ــ فى رأيى ــ يدل على ثقة اللغة فى نفسها، فالخبر يأتى غالبا فى الثوابت الراسخة التى لا توصف بالرجعية ولا الجمود، ولكنها مصونة كالدر الممزوج بالمسك كلما تعرض له الإنسان نال منه طِيبا، وسرورا، وزادا يبلغه المنازل العليا من المجد والرفعة، وأعرض الآن بعض الفقرات الخبرية التى توضح ما عند اللغة من لؤلؤ مكنون:

(رجعتُ لنفسى فاتهمت حصاتى)
(رمونى بعقم فى الشباب)
(فلم أجزع لقول عداتى)
(ولدت ..... وأدت بناتى)!
(وسعت كتاب الله لفظا وغاية)
(وما ضقت عن آى به وعظات)
(أنا البحر فى أحشائه الدر كامن)
(سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما)
(حفظن ودادى فى البلى وحفظته)
(لهن بقلب دائم الحسرات)
(وفاخرت أهل الغرب ....)
(أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ...)
(من القبر يدنينى بغير أناة .. إلخ)

(١) ديوان حافظ ٢٥٣ .

وهناك ملمح آخر فى مطلع (حافظ) وهو أهمية مراجعة النفس عند تصويب أى خطأ ومن أى نوع ، فالنفس التى صدر منها الخطأ هى النفس القادرة على صناعة الصواب:

[رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى !!]

وقصيدة (حافظ) ابتداء من عنوانها إلى آخر بيت فيها تقوم على التشخيص وهو "وسيلة فنية قديمة، عرفها شعرنا العربى، والشعر العالمى، منذ أقدم عصوره، وهذه الوسيلة تقوم على أساس تشخيص المعانى المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة فى صورة كائنات حية تحس وتتحرك وتنبض بالحياة .." (١).

أما قصيدة (الجارم) فتقوم على فكرة الحديث عن اللغة ، وشتان بين الأمرين، بين الإنسان المتوجع الذى يعرف موضع الألم، فيساعد الطبيب على تشخيصه .. وبين إنسان آخر يصف وجع الغير للغير، وليست النائحة كالثكلى كما نعلم!!!.

ويبدأ (الجارم) قصيدته أو مطلعه تحديدا بالأسلوب الإنشائى القائم على الاستفهام: (ماذا طحا بك يا صناجة الأدب؟).

ويمزج بعد ذلك بين الخبر والإنشاء، وتظهر الثقافة الأدبية واللغوية للشاعر فى الأبيات الأولى من المطلع ... ولكن الصورة الفنية لا تهز المستمع أو القارئ كما تفعل عند (حافظ). فاللغة عند (حافظ) تملك صفات العقلاء حيث: (تراجع نفسها) و(تتهم عقلها) وليس لها عقل أصلا ، ولكنه يتهم المقصرين بطريق خَفِيٍّ، و(تنادى قومها) وعندما رفضوا الاستماع إليها (احتسبت حياتها) وعندما ادعوا أنها عقيمة حزنت لأنها الوَلَّادة حيث أنجبت : الترادف ، والاشتقاق ، وعلم الدلالة ، وصيغ المبالغة ، والتضاد ، والمعانى المناسبة لكل مقام وحَدَثٍ.

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة صـ٧٩ ـ ٨٠ د/ على عشرى زايد . ط.دار الفصحى للطباعة والنشر سنة ١٩٧٨م.

إنها تنجب الحسناوات من العبارات الرائعة التى تنشر البهجة والسرور ، وعندما عدمت الكفاءة فى خاطبيها (أو قومها)، خبأت لآلئها إلى أن يظهر الغيورون عليها.

والألفاظ عند الشاعرين عصرية مألوفة لا تحتاج إلى معجم؛ لأن الغموض قليل أو نادر فيهما، وألفاظ حافظ أسهل وأرق من ألفاظ الجارم التى فى بعضها غموض.

ثانيا: موقف الشاعرين من الجزيرة العربية وفضلها على اللغة:

يدعو (حافظ) بالسقيا للعرب القدامى الذين تركوا للبشرية هذا الإبداع، وتتحدث اللغة بلغة الوفاء لهم، فهم أوفياء مع كونهم فى البِلَى، وهى تفى لهم ولكن: (بقلب دائم الحسرات)، ونلاحظ أن الصورة الفنية ممتدة ، حيث جعل لها قلبا مملوءا بالحسرات الدائمة ، وجعل لها ذاكرة تحفظ التراث وتصونه، وجعلها تفاخر الغرب لا بقومها الموجودين على قيد الحياة ، ولكنها تفاخر بالأعظم النخرات للسابقين ... والصورة تشمل الأحياء فى الشرق، وقد كثفتها اللغة فى قولها: (والشرق مطرقٌ حياءً) وخجلا من سوء صنيعه معها!

أما (الجارم) فقد أبدع فى رسم صورة للجزيرة، فقال إنها جدباء فى كل ناحية ... إلا نواحى الخلق والأدب ففيهما خصوبة ما بعدها خصوبة ... ونحن إلى الآن نعيش مع هذه الصورة الفنية لتراث العرب وكنوز معارفهم ... وتمتد الصورة إلى أكثر من أربعة أبيات ... ويؤكد من خلالها أن الصحراء إذا أجدبت فإن العقول لا ينبغى أن تكون كذلك ... ثم يواصل الرسم بالكلمات فيقول: إن البساتين الخصبة تتمنى أن تمنح (أزهارها) قُبلة من هذه التربة الخصبة المنتجة للخلق والأدب ويستمر فى لوحته البيانية فيدخل فيها الفتيات الحسناوات وكل واحدة منهن تترجى أن تلبس قلادة من الشعر والنثر بأنواعهما بدلا من الذهب وغيره من المعادن النفيسة:

جزيـــرة أجـــدبتْ فـــى كـــل ناحيـــة
وأخصبت فى نـواحى الخُلْق والأدبِ
تـــود كـــل ريـــاض الأرض لـــو منحـــت
أزهارهـا قُبْلَـةً مـن خَـدِّها الـتَّرِبِ
وترتجـــى الغيـــد لـــو كانـــت لآلئهـــا
نظما من الشعر أو نثرا من الخطب

ويتميز (الجارم) فى هذه الأبيات أيضـا أنـه ضـمنها حكمـة مستقلة تصلح لأن تقال فى أى موقف عصيب يحمل فى طياتـه مـا يسرُّ، أو فى أى محنة تحمل فى طياتها منحة:

(إن الحجـارة قـد تنشـق عـن ذهـب)

ويتميز أيضا بحسن توظيفه للأفعال، فاستعمل الفعل الماضـى (وأخصبت) عند حديثه عن بلوغ العرب الذروة فى البلاغـة والأدب؛ ولذا نزل القرآن يتحداهم عند بلوغهم هذه المنزلة.

واستعمل الفعل المضارع (تنبت الأحلام) عند حديثه عن العقول واستمرارها فى النمو وكسـب المعرفـة. كمـا اسـتخدم الفعلـين المضارعين الدالين على الاستمرار والتجـدد : (تـود ــ وترتجـى) للدلالة على أن هذه اللغة سيعلو شأنها، وترتفـع مكانتهـا؛ لرفعـة القرآن الكريم، ويتمنى كل من على الأرض أن يرتشف من رحيقهـا الطيب.

ثالثا: نظرتهما إلى سعة اللغة وفضل القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ عليها :

ما زالت اللغة مفصحة عما بـداخلها عنـد (حـافظ)، فتـدفع الاتهامات القائمة على البهتان والزور من جانـب أعـدائها، حيـث يلصقون بها الجمود والضيق، وهى تثبت ــ عن جدارة ــ أنها مرنة وواسعة لما يتسع له كتاب الله الذى يتناول السماوات والأرض ومـا بينهما وما تحت الثَّرىٰ، وقلتُ من قبل إن هذا التشبيه: (أنا البحـر) يحدُّ من سعة اللغة ... ولكنه يقرب المعنى للقارئ حتى يقارن بـين

طرفى التشبيه، علما بأن[البحر]مترامى الأطراف فى الكرة الأرضية، وفيه الحياة لكل الكائنات، وفيه السرور للنفس، والطهارة للجسم، والصفاء للقلب واللغة (المشبه) فيها المعانى السابقة وزيادة.

وتكتمل الصورة الأدبية بالشطر الثانى (فهل ساءلوا الغوَّاص عن صدفاتى؟) فإذا ذكر (البحر) ذُكر (الغَوْص) وذكرت (الصدفات)، واللغة بهذه المفردات تُحمِّل المتخصصين فيها مزيدا من التكليف، وتذكرهم بالأمانة الملقاة على كاهلهم، وصيغة المبالغة فى (غوَّاص) تدل على حتمية الاستمرارية فى فهم دقائق اللغة لننال الكثير من لآلئها وأصدافها.

ويتميز (حافظ) فى هذه الأبيات، بأن جعل اللغة تواكب الحياة، وتكون على دراية بأسماء الآلات والمخترعات الحديثة، فتجود بالألفاظ الدالة على كل ما هو مستحدث، وهذا سهل عليها لأنها تتسع لكل ما يتسع له كتاب الله كما عرفنا .

ويأتى بهذا الاستفهام الإنكارى؛ ليراجع المقصرون أنفسهم، فيعرفوا أن الذى ألهم البعض صناعة هذه الآلات قادر على أن يلهمهم وضع أسماء لها وهى أسهل بكثير من صناعتها:

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

أما (الجارم) فلم يتطرق لمثل هذه الصناعات (التكنولوجية) وموقف اللغة منها،واكتفى ببيان فضل القرآن الكريم،والرسول المجتبىٰ، على اللغة ومع ذلك يتميز بالصورة الفنية البديعة فى هذه الأبيات، فيجعل سور القرآن تتكلم...وتفصح عن مكنون مراد الله ـ عزوجل ـ ويجعلها مسيطرة ومسكتة للرماح الفاتكة والسيوف القاطعة وكأنها تقول: هذا عهد جديد عهد السلم والبناء، لا عهد الحرب والفناء:

تكلمت سور القرآن مفصحة
فأسكتت صخب الأرماح والقضب

وتمتد الصورة الفنية لتشمل منطق الرسول ـ ﷺ ـ فيبرهن على قوة تأثيره فيمن حوله، فهذا المنطق لو نُسجت منه شمس الأصيل فلن يتغير لونها ولن تغيب؛ لأن الرسول الكريم قدوة فى كل شىء، ومن هذه الأشياء البيان؛ ولابد أن يكون أعظم الناس بيانا؛ لأن الله تعالى: "اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصَّه بكتابه، واصطفاه لرسالته"(١).

وما تأثير هذا المنطق الهاشمى على الأيام والدهور؟

تجيب الصورة التى يرسمها بالكلمات:

طابت به أنفس الأيام وابتهجت
ومر دهر، ودهر ، وهى لم تطب!

فقد أثبت للأيام أنفسا وجعلها تطيب وتبتهج، ومن الذى لا يبتهج ولا ينشرح صدره عندما ينصت إلى منطقه السمح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتعليماته التى تراعى البُعدَ الإنسانى والأخلاقى والنفسى فى أى إنسان؟

وترتب على هذه الصورة مشهد فنى آخر يقوم على الحركة والصوت معا حيث تشرفت اللغة بنطق النبى الهاشمى بها ، وعندئذ أصبحت تسير فى تبختر وزهو وهى تجرِّرُ أذيالها فى رفعة وشموخ:

وأصبحت بنت عدنان بنفحته
تيها تجر من أذيالها القشب!

فالتيه وجر الثوب الجديد من خصائص العروس الحسناء ليلة زفافها، وكأن اللغة العربية فى زفاف دائم، وبهجة متواصلة، وهذا ما أفاده الفعل المضارع: (تجرر).

واستخدامه للأفعال الماضية: (تكلمت سور القرآن) و(فأسكتت) و(قام خير قريش) و(طابت) و(ابتهجت) و(فازت) يدل على تحقق

(١) تاريخ آداب العرب جـ٢ صـ٢٨٥ للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى . ط.بيروت ، الثانية سنة ١٩٧٤م.

الوقوع، وأن هذه المعانى الرائعة قد استقرت فى الأذهان ولا تقبل الشك أو المناقشة، وهو بذلك يؤكد ما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾[1] وعندما يتحدث عن الدعوة التى شُغل بها النبى الكريم لمدة ثلاث وعشرين سنة يأتى بالفعل المضارع (يدعو ... إلى الله فى عزم وفى دأب) لأن الدعوة مستمرة ومتجددة ومنتصرة، ومن لوازمها العزيمة والدأب.

رابعا: تناولهما للمحن التى تواجه اللغة:

اتفق الشاعران على أن العجمة، والأخطاء اللغوية المتكررة فى كل يوم، من الأشياء التى تثير الانقباض والتألم .

ولكنهما يختلفان فى الصورة الفنية والتعبير عنها، (فحافظ) يرى أن التطلع إلى الافتتان بكل ما هو (غربى) يعد بمثابة جنون فكما يؤثر على الجسم، فهو يؤثر على اللغة، لأن العقل الحصيف لابد أن يأخذ النافع من (الإفرنج)، ويتصدى لكل ما يفسد لغته، وهويته، وثقافته...

وكلُّ ما هو ضارٌّ وأُخذ عن (الغرب) يُشبه سمَّ الأفاعى الذى يمزج بالماء العذب الفرات، وقد ترتب على ذلك أن اللغة تُرَىٰ كثوب ضم سبعين رقعة، وكل منها تختلف عن الأخرى؛ لأن الرقعة لو كانت من جنس الثوب الأصلى ولونه لما حدث نفور ولا اختلاف ولا تصادم:

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات !!

ومع ذلك فإن تعبير (حافظ) عن الصورة يحمل فى طياته روح التفاؤل الممزوج بالحذَر، وهذا ما نراه فى قول اللغة:

..... ∴ (من القبر يدنينى بغير أناة)

(١) الآيتان ١٣ ــ ١٤ سورة الطارق.

أما (الجارم) فبدلا من أن يستخدم الجنون الذى يوصف به أعداء اللغة، استخدم (الحماقة) وألصقها (بالعجمة)، وحمل على قادتها ويشبّه تدخلهم المزرِى فى شئون اللغة بولوغ الكلب فى الماء الطاهر فيبث فيه الجراثيم الفتاكة، وما فعل ذلك إلا لأنه مملوء من داخله بالإحن، وأنه ملطخ بدماء العرب من الخارج وباطنه غير عربى:

يقوده كلُّ ولاّغٍ أخى إحَنٍ
مضمخ بدماء العرب مختضب

والصورة هنا واضحة المعالم، والفعل المضارع: (يقوده) زادها وضوحا؛ ليعلم أهل اللغة أن هذه الحملات الشرسة على لغتهم مستمرة، ويراد بها الوصول إلى انطفاء نور الله، ولكنه ــ سبحانه وتعالى ــ وعد[1] بأن ذلك لم ولن يتحقق.

وتعبير (الجارم) عن الصورة يحمل شيئا من التشاؤم والقلق بشأن اللغة، جاء ذلك فى الأفعال الماضية يساندها الفاعل فى كل منها:

[وعاثت العجمةُ الحمقاءُ ثائرة
[مضت بخير كنوز الأرض جانحةً
[وغابت اللغة الفصحى مع الغيبِ]

والجملة الأخيرة فيها تعميم تأباه النفس المتذوقة للغة المتطلعة إلى أن يشيع حبها بين قومها. ولو قال:

[وكادت اللغة الفصحى أن تغيب]
أو[وعانت اللغة الفصحى من الغيب]

لعبر عن الواقع الفعلى للغة؛ لأنها تعانى وتتألم، ولكنها لم تغب أبدا، فنجدها فى المجلات العلمية المتخصصة، والرسائل الجامعية،

---

(١) فى قوله عزوجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الآية ٣٢ سورة التوبة .

والمؤتمرات، والكليات الأكاديمية، وقبل كل هذا وبعده فى تلاوة القرآن الكريم على ألسنة الناطقين بها وغيرهم !!

خامسا: موقفهما من معاتبة أهل اللغة:

يستمر (حافظ) فى إنطاق (اللغة)، ويأتى بأربعة أبيات فى هذه الفكرة وقد بُنيت على الأسلوب الإنشائى مع مزجها بالأسلوب الخبرى قليلا. فتنادى أهلها: (فيا ويحكم) [1] وتستفهم منكرة اغترارهم بالدخلاء: (أيطربكم من جانب الغرب ناعب؟) وتأتى لهم بالشرط وجوابه:

ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات!

لتؤكد لهم أن الكيس من قومها يستطيع أن يكتشف خبث نوايا المُعَادِين لها.

ثم تأتى باستفهام تعجبى من صنيع البعض ممن ينتسبون إليها، مع دعائها لهم بالعفو والصفح تحفيزا لهم على الإقلاع عما يغضبها:

أيهجرنى قومى - عفا الله عنهم -
إلى لغة لم تتصل بسواة ؟!

وقامت "ياء المتكلم" بدَوْرٍ فعَّال فى رسم وإيضاح هذه الصورة القائمة على التشخيص والتجسيم كما سبق.

وقد جاء (الجارم) بأربعة أبيات أيضا حول هذه الفكرة، مزج فيها بالتساوى بين الإنشاء والخبر، فينادى أهل الصفوة (محبى اللغة)، ويدعو لهم بالسُّقْيا، ويلتمس منهم الإقبال على رحاب اللغة لإصلاح ما حل بها من عطب ، ويستخدم عنصر الوقت ليستخرج ما عندهم من قُوىً دفينة يجب أن تُوظف فى خدمة التراث اللغوى:

---

(١) الويح: كلمة ترحم وتوجع .

[يـــا عصـــبة الخـــير للفصـــحى وشـــيعتها]

[هلـــم فالوقـــت أنفـــاس لهـــا أمـــد]

ويستطرد فى رسم الصورة بأسلوب خبرى يفيد التعميم، يبرهن من خلاله على أن المرء يجب أن يكون تواجده فـــى الـــدنيا مثمـــرا وبناء، فيسوق هذه التشبيهات الرائعة :

[فإنمـــا المـــرء فـــى الـــدنيا إقامتـــه

إقامة الطيـف والأزهـار والحبـب]

[الـــدهر يســـرع والأيـــام معجلـــة

ونحن لم ندر غير الوخد والخبـب]

وقصر إقامة المرء فى الدنيا (بإنمـــا) علـــى إقامـــة الطيـــف والأزهار والحَبَب يدل على سرعة الزوال والذبول، وكـــذلك تجســـيم الدهر والأيام، ووصفهما بالسرعة والعجلة، فيه إيحاء بـــأن المـــرء عليه أن يملأ الزمن بالأحداث العظيمة، ومنها العناية المستمرة باللغة التى هى وعاء للنهضة والحضارة والتقدم فى شتى المجالات .

سادسا: رؤيتهما لما يجب أن يعمل لصيانة اللغة:

فهذا (حافظ) يجعل (اللغة) تقدم بيانا، وكأن سائلا يسألها: مـــا الذى يُريحك؟ وماذا تُريدين؟ فتتقدم بهذه الاقتراحات إلى فئة خاصـــة فى المجتمع: (معشر الكُتّاب) وترمز بهم إلى كل من له صلة باللغـــة والأدب، والفكر، والإبداع، والثقافة بشـــكل عـــام، وتـــتلخص هـــذه الأطروحات التى نطقت بها (اللغة) فيما يلى:

أ - الرجاء فى الإصلاح الثقافى واللغوى أقرب إلى الواقع من اليأس وديمومة الشكوى :

[بســـطت رجـــائى بعـــد بســـط شـــكاتى]

ب - الزمن ما هو إلا وعاء للأحداث، والأفعال هى التى يقوم بها البشر، فعليكم دور كبير لا يجب التخلى عنه :

[فـــلا تكلـــونى للزمـــان .....]

جـ - العزة الحقيقية فى التمسك الشديد باللغة وآدابها، ففيها الهوية، والوجهة، والحضارة، والتاريخ المشرِّف، والمستقبل الوضئ:

[وكم عز أقوام بعز لغات ؟!]

د - إذا كانت الأمم الأخرى قد أتت بالمعجزات المادية القائمة على التكنولوجيا، فالمطلوب من (أهل اللغة) أن يأتوا بالمعجزات الإبداعية، والثقافية التى تؤدى إلى زيادة الإنتاج الفكرى، والاقتصادى، والحضارى، وتثمر المزيد من التواصل الاجتماعى :

[فيا ليتكم تأتون بالكلمات !]

هـ - وما مضى من اقتراحات ليس عسيرا على قومى (أهل اللغة)؛ لأن الكثير منه كان موجودا ثم انطمس بشىء من الغبار ، وعندما تزيحون التراب عنه، فإنكم بذلك تحيون مَيْتا كان موجودا، وتُنبتون أعضاء تتصل بجسد الأمة من جديد:

[وإما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى]

وأرى أنها صورة فنية رائعة تدب فيها روح التفاؤل أيضا، وهو يعطى نتائج طيبة عن اليأس والتشاؤم .

أما (الجارم) فيقدم بعض الاقتراحات من خلال التصوير بالكلمات، وتحدد فيما يلى:

أ - للمخاطب أن يتخيل إنسانا دخيلا، غريبا عن الحى، والوطن، والأعراف، وتاريخ الأمة ومجدها، فهل يريد لها خيرا؟ وما الداعى إلى التخلى عن الجذور؟

[أنترك العربى ... ∴ إلى دخيل من الألفاظ مغترب؟]

ب - وما هو البديل؟ إنه الكنز !! والمخاطب عندما يستمع ويتخيل صورة (الكنز) يتلهف ويشتاق إلى معرفة ما بداخله ، إنها المعاجم العربية التى لا يقتصر ما بداخلها على الدلالات اللغوية

للمفردات، ولكنها موسوعات كبرى للاستشهادات الشعرية، والنثرية، والقرآنية، والنبوية، والحِكم، والأمثال والوصايا، إنه تراث أمة، يعيش حاضرها على إشعاعات ماضيها، فتجمع بين الأصالة والمعاصرة:

[وفى المعاجم كنزٌ لا نفادَ لَهُ ...]

جـ - وبالصورة أيضا يوضح لنا (الجارم) أن الإجهاد والتعب الشديد قد أصاب بعض (المفردات اللغوية) فهى (تلهث!!) ، ومثلها فى هذا الوضع كمثل ملك عنده مائة من الخدم، فيستخدم اثنين فقط، ويترك الباقين فى حين أنهم صالحون للعمل تماما، وربما أفضل من غيرهم، ولو رجع أهل اللغة إلى الكنز (المعاجم) لوجدوا زادا وفيرا من المترادفات وغيرها:

[كم لفظة جهدت مما نكررها ∴ حتى لقد لهثتْ من شدة التعب!]

د - والاقتراح الرابع هو فك أسر المفردات المسجونة فى بطون الكتب فهى تترجى الحرية، ومن فى الكون لا يحب الحرية؟

[ولفظة سجنت فى جوف مظلمة]

وقد أثبت للشمس عينا ونظرا، وهو يستشهد بها؛ لأنها تعم الكون كله:

[لم تنظر الشمس منها عين مرتقب]

هـ - والاقتراح الأخير الذى يتميز به (الجارم) هو خطوة فعلية تقوم على الحقيقة لا على المجاز، وهو قيام أولى الأمر فى ذلك الوقت بإنشاء "مجمع اللغة العربية" بالقاهرة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٢م، و(حافظ) توفى قبل هذا الحدث بأربعة أشهر، وتحديدا فى ١٩٣٢/٧/٢١م؛ ولذا لم يرد له ذكر فى قصيدته، أما (الجارم) فيقول:

يا شيخة الضاد والذكرى مخلدة
هنا يُؤَسَّسُ ما تبنون للعقبِ

سابعا: الموسيقى والقافية فى القصيدتين:

يتميز الشعر عن غيره من النثر بأشياء كثيرة من أهمها الموسيقى "... وهى عنصر أساسى من عناصر الشعر، وأداة من أبرز الأدوات التى يستخدمها الشاعر فى بناء قصيدته ... وهى ليست حلية خارجية تضاف إليها، وإنما هى وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفى فى النفس مما لا يستطيع الكلام أن يعبر عنه، ولهذا فهى من أقوى وسائل الإيحاء سلطانا على النفس، وأعمقها تأثيرا فيها"(١).

وليس عنصر الموسيقى وحده هو الذى يميز الشعر عن غيره، ولكن يضاف إليها الألفاظ الموحية، وقوة العاطفة، وجمال التصوير، وروعة الصياغة، وبروز ملامح شخصية الشاعر فى فنه الشعرى.

ونحن أمام شاعرين كبيرين من شعراء العصر الحديث، الأول (حافظ) والثانى (الجارم)، وقد نظم الأول قصيدته على إيقاع البحر الطويل (فعولن مفاعيلن) أربع مرات فى كل شطر ونظم الثانى قصيدته على موسيقى البحر البسيط (مستفعلن فاعلن) أربع مرات فى كل شطر.

والبحر الطويل "يلقى بظلاله ــ كما يقال ــ على ثلث الشعر القديم، ويشتمل على ثمان وعشرين مقطعا، ومن المعروف أنه ــ ومعه البسيط ــ من أطول البحور، وأحفلها بالجلال، والرصانة والعمق. والطويل يعطى إمكانيات للسرد، والبسط القصصى، والعرض الدرامى ... والمعانى الجادة ــ كما يرى ابن العميد ــ لا تُؤدَّىٰ إلا بنفَس طويل، ولا تتلاءم إلا مع الأعاريض الطويلة .."(٢).

وعندما نعيد النظر فى قصيدة (حافظ) نجد أن كل بيت فيها يحمل عدة موضوعات، تحتاج إلى جهد كبير للحديث عنها حديثا يتفق مع غزارة مضمونها، ولكن الشاعر ببراعته الفنية طوَّع هذه الموضوعات الجافة بلغته وحسن إيقاعه، وتجسيم المعنويات وتشخيصها، حوَّل العسير إلى اليسير، ونفخ روحه الشعرية فى تلك

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة صـ١٦٢ .

(٢) دراسات فى النص الشعرى صـ١١٦ ــ ١٢٨ د/ عبده بدوى. ط الثانية دار الرفاعى . الرياض سنة ١٩٨٤م.

الألفاظ الجافة، فأكسبتها طلاوة وألفة، وجعل العلم والأدب يعانق كل منهما الآخر، ونتمعن بعض هذه المصطلحات التى أكسبتها الموسيقى حياة جديدة مثل : (الاتهام) و(العقم) و(الآلة) و (المخترعات) و(الوأد) و (القبر) و(الناعب) و(النعاة) و(لوثة الإفرنج) و(الرموس) و(الرفات) و(المَيْت) و(البِلَىٰ) كل هذه الألفاظ وغيرها، ما كانت لتُقبل عند القارئ لولا خصوبة خيال الشاعر، وروعة صياغته،وقوة عاطفته، كل هذه الأشياء جعلتها موسيقية فى موضعها من القصيدة .

ولا يتوقف أمر "الموسيقى" عند هذا الحد، بل إنى أرى أن حديث اللغة عن نفسها، وإضافة الألفاظ الكثيرة ــ فى القصيدة ــ إلى ياء المتكلم يعد بمثابة الموسيقى الداخلية للأبيات، يضاف إلى ذلك استخدام (حافظ) لظاهرة التصريع[1] وهى تعطى نوعا من الموسيقى التى تطرب لها الأذن، وتدل على براعة الاستهلال وحسن المطلع:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى
ونادیت قومى فاحتسبت حیاتى

يضاف إلى ما سبق هذا المحسن البديعى (الجناس الناقص) فى [حصاتى ــ وحياتى] ولم يتكلفه الشاعر، وهو نوع من الموسيقى الداخلية، وإذا كنتُ قد أشرت إلى ياء المتكلم من قبل، فإننى أضيف إشارة أخرى إلى تاء المتكلم، فهما قدَمان تتراقص عليهما الموسيقى فى القصيدة، وتتراقص معهما شقيقتهما الكبرى "موسيقى القافية" التى اختارها شاعر النيل بعناية وبراعة .

وننظر مرة أخرى فى البيت السابق ــ فقط ــ وهو مكون من ثمانى كلمات وتكررت تاء المتكلم فيها أربع مرات: (رجعتُ)، (اتهمتُ)، (ناديتُ)، (فاحتسبتُ) وتكررت ياء المتكلم أربع مرات أيضا: (لنفسى)، (حصاتى)، (قومى)، (حياتى)، وفى كل مرة يزداد القارئ إقبالا وإصغاء، ولا يشعر بشىء من الملل أو النفور، وهذا ما

(١) هو: "المشاكَلة بين العروض والضرب فى مفتتح القصيدة" [أهدى سبيل إلى علمى الخليل صـ ١١٠ محمود مصطفى ــ ط. الحادية والعشرون . صبيح سنة ١٩٨١م] .

يجعلنى أحكم على هذه القصيدة بتحقق "الوحدة الموضوعية" فيها، فهى من أولها إلى آخرها تتحدث عن "أحزان اللغة العربية وآمالها القريبة المنال بمشيئة الله ثم بجهود أبنائها" .

أما (الجارم) فقد سبقت الإشارة إلى أنه نظم قصيدته على إيقاع "البسيط"[1] وهو "يتفق مع الشجن والتذكر والحنين، ويكثر فى الشعر الفصيح والشعبى، بل يجئ فى مقدمة البحور التى يستعملها الشعراء، والملاحظ بصفة عامة كثرة استعماله فى الشعر العربى بمصر وقد تنبه لهذا "أحمد أمين" فى كتابه: (النقد الأدبى)، فقال: أكثر الأغانى البلدية المصرية من بحر البسيط"[2].

والقصيدة مشحونة بموضوعات متعددة منها موضوع اللغة، ومدح الملك (فؤاد) الذى أنشئ "المجمع اللغوى" فى عهده، وذكره للعرب القدامى بالكرم والتشاور فى دار الندوة، والحرص على المكارم فى حِلف الفضول، وأشار إلى بعض الأنشطة الأدبية فى سوق عكاظ، ثم عرّج على أرض الكنانة ودعا لها فى نهاية القصيدة التى بلغت مائة بيت، يخص اللغة منها ما يقرب من خمسة وأربعين بيتا .

والمطلع عند (الجارم) جاء مُصَرَّعا، ولكن الموسيقية فيه لم تكن بدرجة التأثير التى تركها (حافظ) يقول (الجارم) :

ماذا طحا بك يا صناجة الأدب

هلا شدوت بأمداح ابنة العرب؟

فهناك يجمع بين التصريع والجناس الناقص، والمتوجع هو "اللغة العربية" وهنا المتحدث هو "الشاعر" ويستدعى "أعشى قيس" من الماضى ويستفهمه عن سر انصرافه عن الإبداع وصيانة التراث .

---

(١) هذا البحر ومعه الطويل والكامل، نظم أكثر الشعر العربى عليها. [أهدى سبيل إلى علمي الخليل صـ١١٠] .

(٢) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور صـ١٠٤ د/ صابر عبدالدايم ط.الثالثة ـ الخانجى . القاهرة سنة ١٩٩٣م.

ومع هذا يأتى (الجارم) بألفاظ لهـا دلالات موحيـة، ورنـين مسموع، وموسيقى تحبها الأذن مثل (صنَّاجة) و(الشدو)، فما أبدعه فى هاتين اللفظتين!!

ونلاحظ أن الشاعرين اشتركا فى خاصية اختيارهمـا لتفاعيـل مركبة أو (ثنائية) [1] لموضوعاتهما فهى جد عظيمة، وفى هذا دلالة على صلاحية الأوزان القديمة ليضع الشعراء فيها ما يريـدون مـن مضامين حديثة، يبرهنون من خلالها على قدرتهم الفنية العالية.

واختلف الشاعران فى روى القافية (فحـافظ) يختـار التـاء، و(الجارم) يختار الباء، وأرى أن تأثير روى التاء أقوى أثرا؛ لأن هذا الحرف يخرج من طرف اللسان مع اللثة العليا مع فتح (بوابة الفـم) وهما الشفتان، وفى هذا دلالة على أن هذا التوجع الموسيقى المتمثل فى القافية التائية نابع من العمق حتى إن الشفتين لم تقـدرا علـى الوقوف فى طريقه ... وهو ما يشبه الأنين المتصل بوضـع اللغـة العربية، فينطلق ولا يهدأ حتى يحقق للغة رجاءها المنشود!

أما قافية الباء فإن الهواء يحبس عند مخرجهـا (الشـفتين)، وكأن فى ذلك إشارة إلى التقيد، وعدم القدرة على القيام بشـىء مـا ينقذ اللغة مما هى فيه.

والخلاصة التى يمكن الخروج بها من هذا البحث:

١ - أن العبرة فى الأعمال الإبداعية وغيرها، بالكيف لا بالكم، فهذه قصيدة (حافظ)، لم تتجاوز الثلاثة والعشرين بيتا، وبلغتْ فـى الأوساط الأدبية ما بلغتْ من الذيوع والتأثير، وهـذه قصـيدة (الجارم) التى تتكون من مائة بيت ولم تترك التأثير المنشـود الذى يتوافق مع مقام اللغة العربية الرائدة.

(١) لأن هناك تفاعيل صافية أو مفردة مثل (فعولن) فى المتقارب. أو (مفاعيلن) فى الهزج ... إلخ.

٢ - تتميز قصيدة (حافظ) بألفاظها المألوفة، فلا توجد إلا ألفاظ يسيرة لا تعد على أصابع اليد الواحدة، فيها شيء من الغموض، بخلاف قصيدة (الجارم) التى تكثر الألفاظ الغامضة فيها إلى حد ما، ومع ذلك فلا يوجد لفظ مبتذل فى القصيدتين.

٣ - يتميز (الجارم) بالإتيان ببعض الصور الأدبية المستمدة من الطبيعة النباتية والكونية، وتوظيفها لخدمة التجربة عنده، كتشبيهه لتواجد الإنسان فى الحياة وسرعة انقضائه بتواجد الأزهار، وفقاقيع الماء ! كما رسم صورة فريدة للجزيرة العربية بين فيها الخصوبة الفكرية التى جعلتها تتيه على غيرها من بقاع الأرض.

٤ - يتميز (حافظ) بعدم خروجه عن الموضوع، وهذا ما جعله يخدم التجربة بشتى الطرق عن طريق الأفعال الماضية، تارة، والمضارعة تارة، والصورة عنده كلية تشمل القصيدة كلها عن طريق حديث اللغة العربية عن نفسها؛ ولذا كثرت الضمائر التى تعود عليها. ومن هنا رأينا القصيدة كأنها قصة شعرية تحكى فيها اللغة ماضيها وحاضرها وما يسرها فى مستقبلها .

٥ - تتميز قصيدة (حافظ) بملاءمتها لروح العصر، فقد جمع فيها بين الآيات، والعظات، والآلات والمخترعات، وفى هذا دلالة قوية على صلاحية اللغة العربية للعصور كلها وما يستجد فيها .

٦ - تتميز قصيدة (الجارم) بإشارته إلى ما يملكه أولو الأمر، الذين يملكون القرار الذى يعلى من شأن اللغة، ويجعلها فى مقدمة اهتمام أهلها ومحبيها:

من مبلغ العرب أن الضاد قد بلغت
بقرب صاحب مصر(١) أرفع الرتب
أعاد مجدا لها مالت دعائمه
فيا لها قربة من أعظم القرب!!

٧ - ينفرد (الجارم) بإتيانه ببعض الحكم المستقلة، التى يسهل دورانها على الألسنة دون أن ترتبط بسياق الأبيات مثل قوله:

(إن الحجارة قد تنشق عن ذهب)

وقوله:

(وليس يحجب نور الله بالحجب)

كما يتميز بضرب أمثلة كثيرة للبيان العربى من خلال تراثنا المشرف.

٨ - وينفرد (حافظ) بإشارته إلى المقارنة السريعة بين الشرق والغرب، وينصف فى إثبات ما للغرب من تقدم ونهضة، ويترجى من الشرق أن ينهض مرة أخرى فيأتى بالنهضة البيانية الوضيئة التى أضاءت العصور المظلمة للغرب بعد خروج العرب والمسلمين من بلاد الأندلس.

هذه بعض النقاط التى يمكن الخروج بها من هذا الموضوع، ولا أدعى الكمال فهو لله وحده؛ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والله أسأل أن يرزقنا حب العلم وأهله، وأن يمنحنا القدرة على فهم لغة كتابه الكريم. اللهم آمين . وصلى الله على سيدنا محمد .

(١) إشارة إلى الملك فؤاد. (ديوان الجارم/ ٣٣٤) .

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم ٠
- أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية. أحمد حسن الباقورى ط.الرابعة دار المعارف سنة ١٩٨٧م٠
- أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب . عباس محمود العقاد. ط.السادسة دار المعارف سنة ١٩٨٨م٠
- العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ط. دار المعارف سنة ١٩٨٩م٠
- اللغة الشاعرة.عباس محمود العقاد ط.مكتبة غريب.القاهرة سنة١٩٨٨م
- النور الأسمىٰ فى شرح أسماء الله الحسنىٰ . سليمان سامى محمود . ط. دار الصابونى بالقاهرة سنة ١٩٩٠م٠
- أهدى سبيل إلى علمى الخليل. محمود مصطفى ط. الحادية والعشرون. صبيح سنة ١٩٨١م٠
- تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعى . ط. الثانية ـ بيروت سنة ١٩٧٤م٠
- ديوان حافظ إبراهيم . شرح أحمد أمين وآخرين . ط: الثالثة ـ الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٧م٠
- ديوان على الجارم.ط.الثانية ـ دار الشروق بمصر سنة١٩٩٠م٠
- رياض الصالحين. للإمام النووى ط. الحادية عشرة ـ دار عالم الكتب بالرياض سنة ١٩٨٩م٠
- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها،أحمد أمين الشنقيطىط.بيروت.د.ت ٠
- عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى . عباس بيومى عجلان ط.دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١م٠
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشرى زايد . ط ـ دار الفصحى للطباعة والنشر سنة ١٩٧٨م٠
- لسان العرب لابن منظور ط. دار المعارف . د.ت٠
- مختار الصحاح . للإمام الرازى . ط. بيروت ١٩٩٦م٠
- موسيقى الشعر بين الثبات والتطور . ط. الثالثة ـ الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٩٣م ، د/ صابر عبدالدايم٠